رحلة العدل فى مصر

بسط هذا البحث مواقف شامخة لقضاة فى مصر مستندا إلى كتبهم، وأحكامهم، ومواقفهم من هؤلاء:

- الامام الليث بن سعد
- الامام البويطى
- الامام الشافعى
- الشيخ الشعرانى
- محيى الدين بن عربى
- الشيخ المراغى

وهذا البحث بسط أيضا مواقف شامخة لقضاة فى مصر الحديثة مستندا إلى كتبهم وأحكامهم ومواقفهم

فى العيد الخمسينى للمحاكم الاهلية ٣١/ ١٢/ ١٩٣٣ وصف عبدالعزيز باشا فهمى، العدل بقوله «العدل من صفات الله الكبير المتعال».

لو تمثل لكان خلقا جميل الطلعة، طلق المحيا، حلو الحديث، مؤلفا القلوب، سماء فى رضا الكافة على السواء.. فى بسمته طمأنينة وسلام، وفى راحتيه البركة والرخاء والنعيم المقيم».
وانه لكذلك.

• هذه المحاضرة ألقتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى نادى القضاة بدعوة منه فى يوم ٢ من يناير ١٩٨٥ وقد اختارت موضوعا لها (رحلة العدل فى مصر) تعبيرا عما كابدته مصر من محن تحيفت الانسان والمكان فكان صمودها الصامد وصبرها الصابر وقفة عملاقة ارتد على أثرها البغى خاسئا وهو حسير.
وقد طوفت هذه المحاضرة وطافت بمواقف لمصر، شامخة فى إقرار العدل وردع الظلم من حقها التسجيل للأجيال القادمة حتى لا تيأس ولا تنظمامن ولا تحنى رأسا لغير الله لتنتقل الشعلة متوهجة من جيل إلى جيل وتطرد الخطى فى مسيرة طويلة عتيدة شماء لا مثيل لها تمتد من مصر القديمة إلى مصر اليوم ومصر المستقبل باذن الله التى نرجو أن تكون أحسن حالا وأهدأ بالا، وأنعم حياة.

وبعد شيخ القضاة، أعرف فى استحياء، العدل بأنه عدلان:

عدل سماوى وهو أسمى ألوان العدل..

وعدل أرضى

والعدل الارضى بدوره عدلان: عدل مكتوب أى قانون وضعى.

وعدل معاش أى موقف حر.. كلمة حق فى وجه الظلم صاحبها أحد الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: قائل حق فى وجه سلطان جائر.

والعدل فى مصر عرف الاثنين معا:

القانون الوضعى.

والموقف الحر أى الموقف الحضارى.

وسار العدل

قطع أشواطا طويلة..

فى رحلة مسيرتها آلاف الأعوام

رحلة مضنية لكنها ممتعة

قاسية ولكنها رائعة

متحدية ولكنها باتعة

تشرف بمصر وتشرف بها مصر بل يشرف بها الانسان فى كل مكان فقد كان «جيته» يقول: (كلما رأيت عملا جليلا، افرح لاننى انسان).

وبدأت رحلة العدل فى مصر منذ ازمان سحيقة وقبل التاريخ. بدأت يوم عرفت مصر (التجريد) فى اللفظ والفكر وهما درجتان عاليتان فى التقييم الحضارى. فالتجريد فى اللغة مرحلة ناضجة فى التعبير.. والتجريد فى الفكر مرتبة فائقة فى الثقافة.

ومن التجريد فى اللفظ والفكر معا، كلمة «ماعت» التى أطلقتها مصر على العدل والحق والصدق.

ورفع قدماؤنا هذه المعانى إلى قمة فجعلوا «ماعت» إلهة العدل ورمزوا لها بريشة على رأسها.. وهو رمز نفيس ورفيع إجلالا للعدل وإكبارا للحق وإعلاء للصدق وإعزازا للقيمة

واعتـزازا بالمثل الأعلى.. حـتى ليقـول أهلنا فى الريف إلى اليـوم. بروح العدل، عندمـا يرفضـون التحيز أو الاستثناء: هو على رأسه ريشة..

وعندما صار للـعثمانيين دولة، وامبـراطورية، وخلافة، كان الخليـفة يضع فى عمامتـه، ريشة مرصعة -لزوم الفخفخة- وكذلك القواد والفرسان على تفاوت.

كما كان المماليك يتمايزون بهذه الريشة تشبها. يقول برستد فى كتابه «فجر الضمير»:

«إن ماعت قد نشـأت في أول أمرها بمثابة أمر شخـصى بالفرد للدلالة على الخلق العظيم فى الأسرة أو فى البـيئة التى تحيط بالانسـان مباشرة ثم انتـقلت بالتدريج فى سيرها إلى مـيدان أوسع فصـارت تمثل الروح والنظام للارشاد القـومى والإشراف على شئـون البشـر بحيث تكون الإدارة المنظمة مفعمة بالاقتناع الخلقى.

وبتلك الكيفية وجـدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالية وحينمـا بدأ المصريون يتصورون الحكم الالهى لهذه البيئة، كانـوا فى الحقيقة يسيرون فى الطريق المؤدى إلى عقيدة التـوحيد الـسامية.. فلم يكن من مجرد المصـادفة أن كان ثانى الشعوب اهتداء إلى عـقيدة التوحيد المذكـورة، أقرب جيران مصر عبر حدود آسيا فى فلسطين.

فالـتصـور المصرى للنظام الإدارى والخلقى العـظيم، الذى أطلق عليه اسم «مـاعت» والذى صار أسمى مظهر للحـضارة الشرقية القديمة، كـما كان نتيجة للتطور الاجـتماعى الحكومى مدة ألف سنة من حيـاة أمة عظيـمة موحـدة ثابتة منظمـة كانت تخطو دائما فى خـلالها نحـو الارتقاء والتقدم.

ماعت..

كلمة واحدة جامعـة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحيـاة البشرية. إنها أقدم تعبير معنوى ذى معان متعددة..

ماعت لـم تكن تعنى نقيض البـاطل فقط، بل تعنى نقـيض الأخطاء الخلقـية على وجـه عام أيضا.

اختارت مصر الريشة، تاجا للعدالة يفوق التيجان المرصعة وكان المصريون يسمون الله: رب العدالة.

بهذه الريشة أو بجزئها العلوى العارى من الريش بله الأحجار الكريمة، أقسم الله فى الاسلام.

أقسم بالقلم وبما سطر : (ن والقلم وما يسطرون)

وبالقراءة فصل الله بين عهدين: الجاهلية والإسلام بداية الرسالة الإسلامية وبداية الحضارة الإسلامية: القراءة ليست قراءة الحروف فحسب.. بل قراءة المعانى وراءها. وكم قرأت مصر وكم كتبت.. وسطرت.

كانت «ماعت» معناها الصدق

وكانت «ماعت» معناها العدل والحق

وكانت بهذا كله، توضع فى مكان بارز فى دور القضاء، ودور المحاكم وفى المنازل، وفى المقابر منازل الآخرة كما يسميها أبناء الشعب.

وهذا مؤشر إلى قيمة الصدق عندهم فى الحياة، وبعد الحياة.. ومدى تعلقهم به.

ومن حكم امينموبى الحكيم المصرى: (قل الصدق وافعل ما يقتضيه. فهو العظيم القوى).

كان يحنو على الخطأ «قل الصدق» وآية حنوه، قوله: (لا تقولن لا أحمل خطيئة فليس بين يدى الله، انسان كامل).

ومما يحسب لمصر، أن شوقها إلى الحقيقة، لم تدفع اليه حاجة ملحة والحاجة أم الاختراع كما يقولون ولكن مصر أستشرفت إلى الكمال والى معرفة الله من خلال اخناتون الملك السيد الذى لم يكن عنده مشكلة.. ومع هذا كله، ألغى الملك الامبراطور، ألقابه الملكية كلها، حين شعر بضآلة الإنسان مهما بلغ، إلى جانب الله المتفرد بالعظمة والجلال وسمى آخناتون نفسه:

«العائش على الصدق»

وهنا وصل بعد التجريد، إلى التجرد.

والتجرد من الأشياء المادية لا يعنى جهلها أو تجاهلها وهو الملك الواسع الغنى، البالغ الثراء ولكن يعنى التحرر من سيطرتها.. يعنى احتواءها صورة فى داخل النفس، لا اقتناءها عينات خارجها.

وتمسك مصر بالعدل ينعكس، فيها، على الواقع وعلى الأساطير ففى أسطورة ايزيس واوزريس التى قتل فيها «ست» أخاه اوزوريس بكت ايزيس، انسانة ثم انبعثت، مصرية، بروح العدل تسعى الى، المحكمة تعرض قضيتها.

لم تعرف ايزيس، حائط المبكى.. وما عرفته مصر حتى فى أقسى المحن.

إنها تترك للقانون، محاكمة الجانى.

وتترك للزمن من يفلت من العقاب فيتآكل ويختفى، وتظل هى الباقية.

وتسجل أسطورة ايزيس واوزوريس، كره الخنزير عند المصريين لأن «ست» تقمص هيئته وفقأ عين حورس، الذى حملها فى بر الأبناء وقدمها إلى والده رمزا للتضحية والوفاء.. احتفظت به مصر.. واحتفلت به مدلولا ومعنى. ومن مأثورات مصر فى المجاملة (فداك عينى).

ومع كراهية الخنزير، رسموه على جدران المعابد وقد غطوه بشال يقيه البرد فى الشتاء.. وأمامه رجل يسقيه من إناء نظيف فى فصل تام بين حق الحى ولو كان حيوانا، وبين العداوة أو البغض.

وفى القرآن الكريم: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وأن مصر فاقت مقاييسها الخلقية، الوصايا العشر، ومتى؟ قبل أن تكتب الوصايا العشر بألف سنة. إن أدبها ركيزة للتوراة

وبروح العدل تشفع المصرى عند الحساب:

«لم أرتكب ما يغضب الاله»

«لم أتسبب فى بكاء أحد»

«لم أتسبب فى حرمان انسان من حق له»

«لم أنقص المقياس»

«لم أطفف فى الميزان»

«لم اختطف اللبن من فم الرضيع»

لم أطرد الماشية من مراعيها»

«لم أصد الماء فى موسم جريانه»

«لم أقم سدا فى مجراه»

«لم أطفىء شعلة فى وقت الحاجة اليها»

«لم أعترض على إرادة الله»

***

ليت الانسان فى كل مكان فى شرق أو غرب

ليتنا بعد آلاف السنين نلتزم هذا أو بعضه لتعود الحقوق ويتراحم البشر وتهدأ حدة الصراع، وترشد أسباب النزاع.. لتهنأ الحياة.

رحلة العدل فى مصر.. كم هى شائقة فائقة.

كان قاضى القضاة فى مصر القديمة أهم رجل فى الدولة..

كان القضاة قمة الشرف.. فهم فى البروتوكول يأتون أولا، حين يأتى المادحون آخرا.

وكم بين صدق التقنين وشرف اليقين.. وبين ترخص المتزلفين. كانت محكمة الجنوب تتألف من مجلس الثلاثين ويقوم أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم.. وكانوا يلقبون بالقضاة العظام (أور) وأحيانا يأتى لقب القاضى Sab بدون إضافة اليه.

انه القاضى وكفى.

أما فى الشمال فكان مجلس القضاء يتألف من دوائر تعقد فى مدينة «أثيت تاوى»[١].

ويتبين من منظر لإحدى محاكم العدل فى الأسرة الثامنة عشر وجود أربع مناضد وضع على كل منها عشرة ملفات (وهى نصوص القوانين المكتوبة).

وكان كبير القضاة وزيرا.. وكان يضع شارة القاضى فى صدر ألقابه، اعتزازا، بصفة القضاء[٢].

كانت المحكمة العليا تسمى (البيت الكبير) وكانت هيئة دائمة وتشبه مجلس الوزراء الآن. وتأليفها يختلف من قضية إلى اخرى كما تختلف هيئة المحلفين فى بريطانيا فى الوقت الحاضر[٣].

وجاء الملك «حور محب» فى أعقاب ثورة اخناتون واحمس بما يعقب الثورات فأصدر مرسوما (من مآت رع) يحذر فيه كل من يسىء استخدام سلطته.. لم يستثن الامراء أو رجال القصر الملكى أو الفرسان أو حكام الاقاليم[٤].

يقول أرفين سيد:

«ان المصريين من الأمم التى لها ضلع وافر فى العلوم القانونية وإن القضايا امام البلاط تشكل فى الأدب المصرى جانبا أكبر من نظائره فى آداب الأمم الأخرى».

وفى نشيد النيل الذى أورده ارمان فى كتابه (أدب مصر القديمة) يقول المصرى القديم:

«إنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس. يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا، وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا».

ومادام الناس لا يأكلون اللازورد الحر فالشعير أحسن».

يحكى الامام الليث أنه لما قدمت على هرون الرشيد، قال لى:

---

(١) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلندرز بترى ترجمة حسن جوهر عبدالمنعم عبدالحليم.

(٢) و (٣) كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) مجموعة بحوث. بحث الدكتور عبدالمنعم أبو بكر «النظم الاجتماعية».

(٤) اقرأ كتاب (الحياة اليومية فى عهد الرعامسة) تأليف بيير مونتيه ترجمة عزيز بك مرقص.

ياليث ما صلاح بلدكم..؟

قلت ياأمير المؤمنين.. صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها.. ومن رأس العين يأتى الكدر، فاذا صفا رأس العين صفت السواقى..

فقال صدقت ياأبا الحارث[1]

وللقاضى فى مصر القديمة، تقاليد.. فمن أقوالهم:

(اذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع إلى من يتقدم إليك بظلامة، وشجعه على أن يفضى اليك بما عنده، ودعه يفصح لك عما فى قلبه، وإن التهلل فى وجهه وإظهار العطف عليه يحملانه على قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان فى غير مصلحته!

وإن من سمو الأخلاق وحسن التربية، الاصغاء له فى حلم وسماحة وعطف)[2].

ومن العدل فى مصر الجزاء العادل على العمل.

(هناك نصوص كثيرة نجدها منقوشة فى المقابر تدل عبارتها على أن العامل كان يعمل دائما بأجر. ففى هذه النقوش نجد ذكر حسنات المتوفى ومن بينها أنه كان لا يبخس العامل حقه.. وأنه كان يوفيه أجره، فلا يجبره على العمل بأجر غير عادل)[3].

ويذهب معظم علماء الآثار إلى أن القانون المصرى ما كان ليقر نظام الرق فى عهد الاسرتين الثالثة والرابعة، وأن الناس كانوا فى ذلك العهد على اختلاف طبقاتهم يولدون ويموتون أحرارا، **اذن الأهرام لم بتبن بالسخرة** لا فرق فى ذلك بين عامل أو صانع أو زارع ووزير أو عظيم)[4].

ومن روح العدل فى مصر، ما جاء فى نصائح الملك اختوى لابنه الملك مريكا رع:

---

(١) اقرأ كتاب (الليث بن سعد) للدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الاسبق.

(٢) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلندرز بترى.

(٣)، (٤)، (٥) أقرأ كتاب (التاريخ العام للقانون فى مصر القديمة والحديثة) للدكتور شفيق شحاتة.

«هدىء من روع الباكى، ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفا من عمله.. لا تقتل رجلا اذا كنت تعرف جميل مزاياه.. رجلا كنت تتلو معه الكتابات» (اى زميلك فى الدراسة)[1].

ومن روح العدل والشجاعة معا قول «أيبور» للملك:

(افتح ابوابك.. إن أعوانك قد خدعوك).

عدل ويقظة ضمير، معا نصيحة امينموبى لابنه فى أنبل تعبير:

«لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد.. لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد! فالانسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد[2].

الله فى كماله

والانسان فى عجزه

أما الخطيئة فأمرها عند الله

وهو الذى يختمها بأصبعه

وليس بين يدى الله انسان كامل

ولا يقف العجز حائلا أمامه».

ويتساءل برستد: هل كان هناك، عندما نصح السيد المسيح (عليه السلام) تلاميذه بقوله «لا تفكروا فى الغد» أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات؟

انه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا قط الاجابة على هذا السؤال غير أن حكم «امينموبى» قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطىء النيل وبخاصة فى فلسطين على أن أعظم الاجزاء انتشارا من حكم «امينموبى» قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولا تزال مستعملة بين ظهرانينا.

(١) مجلد تاريخ الحضارة المصرية.. بحث (الادب المصرى) للدكتور أحمد فخرى.

(٢) فى أمثالنا اليوم (أنت تريد وأنا أريد ويفعل الله ما يريد)، (بينما يقطع الجريد بفعل الله ما يريد).

وأن مثل ذلك الانتشار الواسع للرأى المصرى القديم عن علاقة الله بالانسان يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير التطور الخلقى المصرى القديم لا فى تاريخ الانسان القديم فحسب، بل فى تاريخ المدنية الغربية أيضا.

حتى فرعون موسى عندما خاطبه موسى، لم يستقل بالرأى بل نظر إلى قومه وطرح الموضوع (قال لمن حوله ألا تستمعون)؟

الشعراء (٢٥)

وبغض النظر عن رأيه فى موسى، ربيب قصره الذى خرج عليه، وفى نفس ملك مصر، منه، ما فيها بعد أن قتل أحد رجاله بغير حق وفر هاربا (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين». الشعراء (١٨، ١٩)

بعد هذا كله وصفه بقوله (ان هذا لساحر عليم - لم يقذع فى القول- لاسيما اذا عرفنا نظرتهم إلى السحر، مهارة من المهارات، واذا لاحظنا كلمة عليم بما تضفيه من عمق فى فن السحر.

ثم نظر إلى رجاله قائلا (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟).

الشعراء (٣٥)

ادب فى خطاب رجاله وهو الملك صاحب الكلمة العليا

لقد جعل الامر للجماعة

وحتى حين غضب على السحرة لانضمامهم إلى موسى، قال:

(آمنتم به قبل أن آذن لكم) الشعراء (٤٩)

هنا البادرة الاولى فى غضبته مسألة الإذن.. نقطة بروتوكول ثم كانت الثورة العارمة حين ظنها مؤامرة ضده (ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون: لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) الأعراف ١٢٤.

والى اليوم يستبيح الحكام من كل جنس ولون القضاء على المؤامرات بكل الوسائل القاسية.. شعارهم: (أنا وبعدى الطوفان).

على أنه لما رأى آية الله هتف منيبا (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) سورة يونس آية ٩٠

والامام محيى الدين بن عربى يقول فى كتابه (فصوص الحكم) بايمان فرعون ايمانا لازما، وأنه لقى ربه طاهرا مطهرا سالما من العيب، بريئا من الذنب) وظاهره فى هذا الامام جلال الدين الدوالى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب.

لقد جعله ابن عربى آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله العلى القدير.

لقد قتل موسى مصريا بغير حق.

وأخوة يوسف قتلوا أخاهم فى ظنهم حين ألقوه فى الجب، وكذبوا على أبيهم وأبناء يعقوب سفاحون عندما يذبحون أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية.

ألا يخطىء من ليسوا أنبياء؟

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب الخطأ على كل فرعون؟ على أنه أناب والله غفور رحيم.

ألم يكن أخناتون متساميا موحدا نبيلا؟

واذا جاز أن يحسب على مصر خطأ فرعون واحد «فرضا» فإن من العدل أن يحسب لها فى المقابل أمجاد فراعين يكفى الواحد منهم أمة بأسرها فى باب المفاخر.

عدل وشجاعة معا أن يواجه فلاح مصرى بسيط الحاكم ويشكو اليه أحد رجاله المقربين.

وقد طلب الفلاح المصرى فى قصته المعروفة[1] إلى الحاكم ان يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطىء وخدم كلمة الموازين فى معانى الحق والعدل.

(١) قيل انها وقعت فى عصر الملك (نب كاوو- رع).

يقول برستد: (وقد وجدت الموازين فى ذلك المقال لأول مرة فى تاريخ الاخلاق. وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا لذلك إلى يومنا هذا).

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل.

(الله أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك الشورى ٤٢.

(والسماء رفعها ووضع الميزان) ٧ م الرحمن ٥٥

(ألا تطغوا فى الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك الأنبياء ٢١

(وزنوا بالقسطاس المستقيم) ١٨٢ ك الشعراء ٢٦

وليس معنى هذا أن الإسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين فالقرآن كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهدى الانسان فى دينه ودنياه ويروى ظمأ الانسان إلى العدل والخير فى أسلوب يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية.

وقد عرف الصفوة فى أزمنة مختلفة، بالفطرة السليمة، ألوانا من معانى الخير والعدل. ومن هنا كان سبقهم إلى الايمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وأفكارهم.

على أن الاديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار، وانما غايتها الهداية واشاعة الخير والعدل والرحمة.

ومن شرف الانسان أو المكان أن يهتدى فى تطلعه إلى السماء إلى معان تأتى الاديان فتعززها.

وسبقت مصر القديمة إلى قانون (من أين لك هذا؟) فقد أصدر الملك أحمس الثانى من الاسرة السادسة والعشرين قانونا يحتم على كل شخص أن يقدم اقرارا فى كل سنة مبينا كسب عمله ووسائله وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ويفصلها بدقة[1].

(١) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلندرز بترى. ص ١٦٢.

وقد دعا هذا الملك إلى عقد (جمعية وطنية) وكَل إليها مراجعة جميع القوانين وتنقيحها. وقد استمر انعقادها من السنة الخامسة من عهده إلى السنة التاسعة عشرة أى نحوا من خمس عشرة سنة. ودعوة هذه الجمعية التشريعية يعتبر حدثا فذا فى تاريخ مصر الفرعونية.. فلأول مرة خلال هذا التاريخ نجد الفرعون يشرك (هيئة تشريعية فى سلطته التشريعية)[١].

ولم يكن هذا القانون شعارا بل عدلا نافذا وقانونا حقيقيا..

عرفت مصر العقود بأنواعها وحق الانتفاع وحق الارتفاق والهبات والوصايا.

وكان المصريون امام القانون سواء حين كان دستور قوانين (حمورابى) يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمتقاضين.

وتند عن برستد، هتفة صدق:

(فى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٣٥٠٠ ق.م قامت اول دولة متحضرة كبيرة فى وقت كانت فيه أوروبا ومعظم غربى آسيا لاتزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرى[٢].

ويقول (ان مصر من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق. م، وهذا العصر البالغ ألف سنة هو **مرحلة فريدة في حياة الانسان علي الارض**- ومن المهم أن نؤكد كلمة «فريدة» لأنه لم يكن فى هذا العصر البعيد نمو مطرد متعاقب فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم القديم. وان مدة الألف سنة هذه هى التى وضعت مصر من الوجهة الخلقية والثقافية فى مرتبة تفوق بكثير ما كان فى بابل حيث كانت الشحناء قائمة بين بعض المدن وبعضها الآخر)[٣].

ويقول : (ان الحضارة البابلية كانت تسودها فى جميع أدوارها روح الاقتصاد التجارى والكد فى الحاجيات الآلية مما حرم التطور الاجتماعى البابلى حتى من الأسس الأولية للتدرج نحو مراعاة الغير، والعمل على نفعهم فكان الاساس الخلقى اللازم للعدالة بين الجميع معدوما كلية.

---

(٢) كتاب (التاريخ العام للقانون فى مصر القديمة والحديثة) للدكتور شفيق شحاته.

(٣)، (٤) كتاب: فجر الضمير: جيمس هنرى برستد.

أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفا فى بابل.. وكانت نتيجة ذلك أن المبادىء الأخلاقية فى بابل لم تساهم بالنزر اليسير ان لم تكن لم تسهم بشىء مطلقا فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى)(١).

وحين يعزو تقدم أمريكا اليوم، إلى وراثات المهاجرين الأوائل من الأمم الأوروبية، يقول: (المدنية فى أعلى معانيها ولدت فى الركن الجنوبى الشرقى فى البحر الأبيض المتوسط فى مصر على ضفاف النيل فى وقت كانت أوربا لاتزال تعيش فيه همجية العصر الحجرى. ولم يكن فيها من يسبقها إلى المدنية.

من يعرف هذا كله يعرف قصة ظهور أول مدنية على وجه الكرة تحمل فى ثناياها صورا خلقية ذات بال).

ودخلت المسيحية مصر والرومان فيها سنة ٦١م.

وهنا تمثل العدل موقفا

وتمثل موقف مصر ارادة اختيار

عادى الرومان المسيحية عداءا مرا فاختارتها مصر نكاية فيهم ومخالفة لهم للتعبير عن المقت والمغايرة ولتأكيد وجودها وإظهار شخصيتها بحرية الاختيار وأصرت مصر على رأيها ولاقت من صنوف العذاب الوانا وهى لا تحيد وخاضت من أجل المسيحية معركة الشهداء بل من أجلها هى فما كانت المسيحية إلا تكأة تستند اليها فقد كان كفاحها سياسيا ودينيا معا. وكلما صالت الآراء اتخذت مصر موقفا وقالت برأى خاص بها من فرط إحساسها بذاتها وطاقة التحدى فيها. وإمعانا فى التحدى سموا التقويم المصرى «تقويم الشهداء».

وطار صواب البغى طويلا ثم ثاب ورفع الطغاة الظلم عن المصريين المسيحيين بل انتهى الأمر باعتناق الامبراطور «قسطنطين» المسيحية.. وابتسمت مصر.

وبروح القوانين وحسن التقنين كتبت مصر فى المسيحية وشرعت. فمصر المسيحية المصدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيها اثناسيوس الذى تألق فى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ م وإن مؤلفاته

(١) كتاب: فجر الضمير: جيمس هنرى برستد.

التى وضعها عن (تجسيد الكلمة) و «الرد على الأريوسيين» (والروح القدس) لتعد ركيزة لكل ما كتبه مشاهير اللاهوتيين.

وفى أوروبا قول سائر فى ذلك الحين:

(اذا وجدت عباره من أقوال اثناسيوس.. ولم تجد ورقا لتكتبها فاكتبها على قميصك فى الحال).

وقد سجل الغرب أثر مصر الروحى فى كتب:

(بستان الرهبان) و (المعاهد) و (المقابلات).

كما أثرت تعاليم ياخوميوس فى حركة. الإصلاح الكونى تلك الحركة الكبرى التى كان لها أثرها فى توجيه المدنية فى العصور الوسطى.

لباخروميوس المصرى تدين، فى نشأتها، جماعات الفرنسيسكان والدومنيكان بل اليه ينسب الفضل فى قيام النهضة الادبية الفكرية الاولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بما هى أثر من آثار تلك الهيئات الديرية وبما اقترن بها من قيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى.

ومصر هى التى وضعت النظام الرعوى الذى يبدأ من الشماس، وينتهى إلى الأسقف.. وعن مصر، اخذته بقية الكراسى الرسولية.

***

وجاء الإسلام مصر

وهنا مرة أخرى.. تمثل العدل موقفا

وتمثل موقف مصر ارادة اختيار

اختارت مصر الإسلام وحاربت من أجله تحديا سياسيا للرومان أيضا. فقد راع الرومان فتوحات الإسلام وإخراجهم من الشام ثم مصر فرأوا أن ينازلوه فى البحر لعدم دراية العرب بالبحر والسفن. وهنا قام على أكتاف مصر أسطول للاسلام.. وباسطول مصر انتقلت إلى الإسلام

سيادة الحوض الشرقى للبحر الابيض يوم أعانته، كدأ بها ابدا، فى معركته البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها لتهزم أعداءه فى موقعة (الصوارى).

كان إسلام مصر، إرادة اختيار لا هربا من الجزية التى تعنى دينارين فحسب فى السنة على رأس الأسرة ويعفى منها الشيوخ والنساء والاطفال وكانت مقابل حماية الثغور أى بدل عسكرى.. حين كان المسلم يكلف بدفع الزكاة وهى ربع العشر عن جميع أفراد الأسرة ولو كان طفلا وليدا.. كما كان المسلم مكلفا بحماية الثغور أى الجندية التى كانت تهرب منها الأمم جميعا حتى أن انجلترا فى اول القرن التاسع عشر حين أرادت تدعيم البحرية الانجليزية لجأت إلى دعوة الشباب وإغرائهم بالشراب والعب منه حتى اذا ثملوا، جعلتهم يوقعون على عقود التحاق بالبحرية.

أما محمد على فقد عرف بذكائه المدخل الدينى إلى مصر المتدينة حتى قبل الأديان فسمى الجندية، الجهادية ليستنهض الهمم اليها.

وهنا نخلص إلى إن الإسلام الذى كان يحتم الجندية لحماية الثغور لا يعتنقه إلا مؤمن به مقتنع.

وفى دولة الإسلام لم يخب احساس مصر بالعدل ومنذ البداية إن قصة ابن عمرو بن العاص الذى ضرب مصريا سبقه، لا تعدو أن تكون اشتباكا بين صبيان لم يترد إلى اعتقال أو تعذيب أو تأميم أو مصادرة أو سب مفرد على المنابر حتى لرجل الدين.. ومع هذا تمسك الصبى ووالده برفع الأمر إلى الخليفة أعلى سلطة ودونه من السفر آلاف الأميال مع ما تكبده مثل هذه الرحلة فى ذلك الوقت.. موقف.

ويزداد الموقف شموخا حين يزيد عمر فى احقاق العدل وارضاء المظلوم فيقول للفتى المصرى بعد أن ضرب بأمره، ابن عمرو الذى كان قد استدعاه مع والده:

الآن اعل بعصاك صلعة عمرو (وكان الوالى)

فيقول الفتى ربيب الحضارة الطويلة:

شكرا ياأمير المؤمنين لقد ضربت من ضربنى.

ويرد الخليفة العادل ربيب الإسلام:- موجها اللوم إلى عمرو بن العاص- (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

وفى الإسلام أخذت مصر دورا مؤثرا.

جاء فى (حسن المحاضرة) للسيوطى، أن الشيخ كمال الدين الدميرى ومن الحديث:

ان الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الامة من يجدد لها دينها.

وهو حديث رواه عن ابى هريرة ابو داود فى سننه، والحاكم فى المستدرك، والبيهقى فى المعرفة.

قلت: ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس القرون مصريون: عمر بن عبدالعزيز فى الأولى والشافعى فى الثانية، وابن دقيق العيد فى السابعة، والبلقينى فى الثامنة..

وأضيف أن مصر قدمت غير هؤلاء الأجلاء:

الامام الليث الذى كان الامام الشافعى يقول:

(الليث أفقه منى ولكن ضيعه قومه) ويقول:

(الليث أفقه من مالك ولكن قومه لم يقوموا به) ويقول:

(كان أتبع للاثر من مالك)(١)

والشيخ عز الدين بن عبدالسلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه، والبوصيرى صاحب البرده

وكم من العلماء والمصلحين آووا إلى مصر أو سمعوا عن مصر أى كانت مرباهم العلمى كما كانت للاسلام بيئة حضارية وركيزة حضارية وواجهة حضارية.

قدمت مصر الامام البويطى

وقدمت مصر ذا النون

وقدمت مصر ابن الفارض

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فى الإسلام الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها، تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الازمات الكبرى.. فاتفق رأى

(١) كتاب (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى) للاستاذ عبدالمجيد عابدين.

العلمـاء على رجلها الشـيخ تقى الدين السـبكى ليوفق بيـن المذاهب الاربعة ويخـرج منها بالنفـاذ المصـرى واللمح المصـرى وحس التقنيـن وروح العدل، مـذهبـا ينقاد الناس لـه، ويرتاحون اليـه، ويقرون عنده.

وبعد، السبكى، قام بالتوفيق مصرى آخر هو الشيخ الشعرانى، بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان.. وأهل النظر والاستدلال.. ويقول الباحثون الغربيون أنه مصلح يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا.

والتـوفيق هنا وجـه من التجـديد الذى يصفـه الأستـاذ الخولى بأنه (حـركة دائمـة متصلـة ما اتصلت الحيـاة، وما قام فيهـا من يحمى الحياة من الانحـراف، ويجهر بالحق، ويصون المجتمع من الانتكاس، وشيوع المفاسد فيه.

التجديد بهـذا كله انما هو ثورة اجتماعـية دورية، يقوم بها عارف بـالحياة، متصل بهـا وعميق الفكرة عنها)[1].

وبروح التشـريع تناولت مصـر كتب الشافـعى وأبدت من الملاحظات عليهـا بل النقد لهـا ما تقبله الشافعى كريما واقتنع به حتى أنه أعاد كـتابة رسالته ومذهبه من جديد فى مصر.. وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق.

لقد محص آراء ورجع عن آراء كما يقول الشـيخ محمد أبو زهرة، فى كتابه (تاريخ المذاهب الفقهية). وكتاب الشافعى (الأم) به شواهد كثـيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس، وشهادة الشعراء وصيغ الوقف.

بل بلغ من اعـتداد الشـافعى بكتـابه المصرى أنه كـان يقول (لا أجـعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى)

وهكذا نرى المجددين الـذين اقترنت بهم وبأسـمائهم حركـات البعث التـجديدى فى تاريخ الإسلام فى البضعة عشر قرنا، مصريين معظمهم.. بالمولد أو والمَرّبى أو الولاء.

(١) المجددون فى الإسلام ص ١٧.

ففى حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الاستاذ الخولى (تجد مصر. كدأبها- مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعاثها الذى يحدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد فى البعث ومن أجل البعث)(١).

وفى مصر الإسلامية، أيام الفاطميين، كان قاضى القضاة (يتقدم سائر رجال الدولة فى الدخول على الخليفة.. وكان هو الوحيد فى الدولة المسموح له بركوب الفرس الأشهب)(٢).

ومن الطريف ان قاضى القضاة فى مصر الاسلامية كان يختار الشهود بعناية من بين الأشخاص المعروفين بالأمانة وعلى الأخص من بيئة طبقة الأشراف وهم فوق هذا، كان عليهم أن يقدموا الضمانات الكافية حتى لا يسيئوا إلى سير العدالة أو يعرقلوا عمل قاضى القضاة(٣).

ولما كانت الشهادة فى الدولة الاسلامية من الوظائف الدينية التابعة للقضاء، كان ابن خلدون يعتبرها فى «مقدمته» (من وظائف الدولة الهامة) لما بين (الحكم) و (البينة) من صلة وثيقة فى القضاء الاسلامى حيث كانت الدليل الوحيد للحكم عند القضاة.

سبق القضاء، السياسة، وحقق الشورى.

كان ينفذ إلى معناها الذى اشتق من «شور» العسل اى جناه بعد أن جمعه النحل من رحيق أزهار مختلفة وكثيرة فكان فيه شفاء للناس.

وفى الشورى شفاء المجتمع بتجنيبه ويلات الحكم الفردى.

وفى كتاب (ادب القاضى)(٤).

لا ينبغى للقاضى أن يجلس للقضاء وهو غضبان ولا ضجر ولا جائع ولا كظ من الطعام أى ممتلىء. ويكون جلوسه عند اعتدال أمره، ويجعل سمعه وفهمه وقلبه إلى الخصوم، لأن الضجر والجوع والامتلاء من الطعام مما يشغل الخاطر والفهم عن القضاء. ولا ينبغى للقاضى أن يقضى

(١) المصدر نفسه.

(٢) صبح الأعشى.

(٣) اقرأ كتاب (نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر) للدكتور عبدالمنعم ماجد.

(٤) كتاب (أدب القاضى) تأليف أبى بكر أحمد بن عمرو بن بهير الشيبانى المعروف بالحصان ص ٩٥- ٩٦.

بين اثنين وخاطره مشغول بغيرهما لأنه لا يؤمن عليه العدول عن الحق. والأصل فى هذا كله ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان».

وعن شريح أنه كان اذا غضب ترك القضاء وقام.

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه قال لميمون بن مهران حين ولاه القضاء لا تقض على غضب ولا ضجر وليكن من رأيك الحلم عن الخصوم واعلم أنه لاخير فى قضاء إلا بفهم، ولا خير فى فهم إلا بحكم، ولا خير فى حكم الا بفصل ولا خير فى فصل إلا بعدل.

وفى عهد الفاطميين كانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة نفسه(١).

واذا كان العدل، هو الحق والكرامة والترفع وكم لمصر فى هذا الباب من مفاخر.

فالليث بن سعد امام مصر وفقيهها رفض أن يكون قاضيا لابى جعفر المنصور الخليفة أخى عبدالله السفاح.

وقبل أن يكون صالح بن على العباسى واليا على مصر، عرض حكم مصر على الامام الليث فرفض.. ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث أحد أفذاذ معدودين فى حياة الشريعة الإسلامية.. كان السلطان والقاضى يسعيان سعيا إلى مجلس الليث التماسا للرأى أو التأييد فاذا استحقه احدهما، جاد، عليه، به، امام مصر وفقيهها.. وإذا أنكر رجلنا الليث من السلطان، أو القاضى أمرا، كتب إلى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم، العزل.

كان الليث اماما.

وكان موقفا(٢).

كان له فى الدين رأى، وله فى المجتمع سمت خاص، استعان بالتاريخ، بحاسة بلد التاريخ، على تفسير النصوص ومضاهاتها والخلوص إلى رأى يقرب الأطراف المتعارضة ويجمع الكلمة فى وقت هزت الأحداث السياسية، الدولة الإسلامية وصدعت شعوبها.. وهو فى هذا ينبع من

(١) كتاب المعز لدين الله تأليف د. حسن ابراهيم حسن- طه أحمد شرف.

(٢) كتاب (شخصية مصر) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

طبيعة مصر الإسلامية وأسلوبها التقليدى فى الوفاق منذ وفق قبله فيلون الفيلسوف الإسكندرى بين المسيحية والفلسفة اليونانية، ووفق الشيخ تقى الدين السبكى، بعده، بين المذاهب الأربعة، فى القرن السابع الهجرى كما أسلفت.

رفض الامام الليث، الحكم، وهو رفض للتبعية ولكنه حكم بأسلوبه هو، اذ جعل له أربعة مجالس: المجلس الاول يراجع فيه أعمال الولاة والقضاء ويقيسها على الكتاب والحديث والسنة فاذا وافقتها، اعتمدها.. فإن إقراره الشخصى بمثابة اعتماد.. ورفضه لها إبطال وبطلان.

أليس فى استطاعته عزل الوالى والقاضى؟

والمجلس الثانى: خص به أصحاب الحديث.

والمجلس الثالث: اختص به الناس يعرضون مسائلهم.

والمجلس الرابع: لأصحاب الحوائج.. وكم فرج الامام الليث كربات وقضى حاجات.. فحياته للافتاء والإيواء حتى نسجت حوله فى هذا قصص أشبه بالأساطير كقصته مع منصور بن عمار الذى نهاه عن مدح الحكام وأجزل له العطاء قائلا «خذ هذه وصن حكمتك».

وقولته الوجيزة والعزيزة: دستور العلماء وأصحاب الحكمة فى: الكرامة.

ومن رجال مصر أصحاب المواقف الذين لم يخشوا فى الحق أحدا، الامام البويطى الذى حمله الخليفة المأمون على القول بخلق القرآن فلم يذعن.. ويحمل فى غل الحديد إلى بغداد فلم يقر.. ويطرح فى السجن مقيدا إلى أنصاف ساقيه مغلولة يداه إلى عنقه ولكنه لا يتطامن! ويموت على هذه الحال كما مات ضحايا هرقل فى المسيحية لينتظم منهم جميعا مسيحيين ومسلمين على تتابع الدينيين موكب الأحرار المصريين يرتاد لنا كلما أغطش ليل، طريق الحياة الكريمة على ضوء كلمة البويطى (لئن أدخلت عليه -يعنى الخليفة- لأصدقنه ولاموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم).

لم يمت فى عداد الرجال أعلام الانسانية، البويطى، ولكن مات المأمون.

وعذب ذون النون فيمن عذب من رجالنا عندما امتحنا (بخلق القرآن) وسيق إلى (المطبق) تحف به القلوب مبللة بدموعها. وفى اصرار لم يتزحزح عن رأيه بل كان يقول فى هدوء الواثق من نفسه:

لك من قلبي المكان المصون ... كل يوم علي فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا ... فيك والصبر عنك مالا يكون

واذ أحضره المتوكل لم يكتف باطلاق سراحه بل تأثر به وانتصر من أجله، للصوفيه على الفقهاء.

ومن رجال مصر أصحاب المواقف قاضى القضاة وسلطان العلماء العز بن عبدالسلام الذى واجه السلطان الصالح أيوب والذى أصر على بيع المماليك ومنهم نائب السلطان باعتبارهم أرقاء لا تجوز لهم الولاية حتى يعتقوا.. ويذهب اليه نائب السلطنة على رأس جيشه فلا يرهب ويصر على رأيه فلم يجد النائب بدا من الأذعان وبيع المماليك وقبضت مصر ثمنهم بيده.

ويسأله ابنه: خفت عليك ياأبى فيكون رده:

مما تخاف يابنى.. لقد استحضرت هيبة الله فبدا نائب السلطان فى عينى كالقط.

وفى قصة الظاهر بيبرس تسخر مصر من عدل الحاكم بصورة عملية فتنشىء ديوانا شعبيا لا يرتشى ولا يتجبر ولا يتكبر.. ديوانا مصريا لا يميل فيه ميزان العدل ويتقدم اليه أبناء البلد والفلاحون فيجدون اذنا صاغية وصدرا رحبا.. وكأن مصر الإسلامية بهذا الديوان تتجاوب مع رغبة بعيدة أبداها فى مصر الفرعونية، الفلاح الفصيح.

حتى قصة الهلالية التى لا تعدو عراكا بين قبيلتين أعملت مصر فيها رأيها ووجدانها فجعلت الحسن بن سرحان، عادلا عفوًا انعكاسا لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة.

وغدا الحسن بمجامع الصفات المصرية فيه، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجبه السمت والشارة باذخ العطاء الفنجرى العادى «عامل ابو على» وتسخر مصر من الظلم ويسهم فى هذا

«واعظ» هو يوسف الشربيني واعظ شربين الذى هز القحوف فى شرح قصيدة ابى شادوف الذى الف خطبة على نمط خطبة الجمعة، غير أنها تفيض بالسخرية والألم معا.. ومنها:

(الحمد لله مزيل الحَزَن ومزين الارز باللبن، وأشهد أن اللحم الضانى سيد الاطعمة ومصلح للبدن.. واعلموا أن القشدة لا تترك وان المهلبيه احسن وابرك فتهيأوا لأكلكم وشريككم وأعلموا أنكم، غدا بين يدى الله موفون، وبأعمالكم محاسبون.. وعلى رب العزة تُعرضون وسيعلم الذين جاءوا أى منقلب ينقلبون.. اللهم وارض عن الأربعة الأعيان التين والزيتون والخوخ والرمان وأرض اللهم عن الستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة:

الماوردية، والمهلبية، والشعرية بالزغاليل المربية والارز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل والقرع المحشى باللحم والبصل والبقلاوة الموصوفه والخرفان المعلوفه واليخنى السمين والقرمزيه متعنا الله واياكم بهم اجمعين.. اللهم وادم النصر والتأييد والثبات واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ابن القنانى من اصله من القصب الملوانى.. اللهم ايده بأرماح القصب وبسبايط الرطب وبعناقيد العنب واجمعنا عليه من اول النهار وفى وسطه وآخره.. اللهم واهلك الثلاثة الفجار: العدس والبسلة والبيصار).

- هؤلاء هم الفجار الذين يواجههم الشعب. أما الفجار والكفار من الامم البائدة فهم لا يعنونه-

عباد الله من أراد حلل القبول أن تسدل عليه فليأكل الموز بالسكر بين والديه، وتفكهوا قبل الطعام واقتدوا بسنة خير الانام ولا تتضاربوا ولا تتخاذلوا، وكونوا عباد الله اخوانا).

فى هذه الخطبة مرام بعيدة للسخرية أقربها أن الجائع المحروم لابال له ولا فراغ فى صبره أو صدره، للخطبة الموضوعة والألفاظ المصنوعة والدعاء المتكلف الذى لا روح فيه ولا مسوغ له وإلا فكيف بعد الحرمان يطُلب من الشعب المصرى الدعاء بالنصر والتأييد.

إن خطبة الجمعة يجب أن تعيش فى مشاكل الناس.. تعلمهم أن الايمان معناه (العزة والكرامة) لا النفاق استنادا إلى الآية:

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»

أما أن تدعو للظالم وتخدر المظلومين بالجنة أو ترعبهم بالنار وتحذر الضحايا من عاقبة الظلم وهم عاجزون عنه وراسفون فيه، فلا.

انتقل، وفى التاريخ صفات، وفى النفس حاجات، إلى مصر الحديثة ورحلتها مع العدل.

أبدأ من الحملة الفرنسية.

لقد عبث نابليون بمقدسات كبيرة فى مصر ولكنه امام القضاء، وقف.. لم يمسسه فى جوهره بل اجتهد فى البداية او تجاهد فى تأييده اذا صح هذا التعبير.

افتعل نابليون تأييد القضاء المصرى.. تودداً إلى قضاته، ومرضاة لهم، أو تحسبا لغضبهم.. ثم أصابته غدة قانونية بعد هذا شأن الطغاة كلهم(١).

وأنشأ محمد على، «ديوان الوالى» و «مجلس شورى الجهادية» ثم أُلغيت المجالس التى أنشأها وأحل محلها سبعة دواوين:

الديوان العالى -ديوان الايرادات- ديوان الجهادية- ديوان البحر- ديوان المدارس- ديوان الامور (الافرنجية والتجارة المصرية- ديوان الفاوريقات.

ثم أنشأ مجلس المشورة وجمعية الحقانية والمجلس الخصوصى والمجلس العمومى ومجلس جمعية الاسكندرية.

ولم يفت «العدل» قيمة كبرى تحيا عليها، وتحيا بها الامم والدول.. العدل بهذا الثقل الحضارى لم يفت رفاعة الطهطاوى فقال:

(وما يسمونه الحرية «فى فرنسا» ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا، العدل والانصاف وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة)(٢).

(١) اقرأ كتاب النظام القضائى المصرى الحديث للدكتورة لطيفة محمد سالم.

(٢) «تخليص الابريز فى تخليص داريز لرفاعة رافع الطهطاوى ص ٨٠.

(٣) اقرأ كتاب: (العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة).

حتى العدالة الاجتماعية والاقتصادية تكلم عنها رفاعة الطهطاوى من نحو الزرع، وأولوية العمل على رأس المال(٣).

والمجلس العمومى ومجلس جمعية الاسكندرية.

كما أنشأ عباس الأول مجلس الأحكام.

أما سعيد فقد أنسحبت تقلباته على القضاء.

وفى سنة ١٨٧١ أنشأ اسماعيل بكل قرية من القرى مجلسا لنظر القضايا الصغرى سمى «مجلس دعاوى البلد» تستأنف أحكامه أمام مجلس دعاوى المركز، تستأنف أحكامه أمام «مجلس الاقليم».

وكان هناك:

المجالس الابتدائية- المجالس الاستئنافية- مجلس الأحكام. هذا غير:

المجالس الحسبية• المجالس المالية.

كما أنشأ ديوان الحقانية ومجلس شورى النواب فى ١٩/ ١١/ ١٨٦٦ الذى ألغاه ثم أعاده سنة ١٨٧٩ وجعل الوزارة مسئولة أمامه لا أمام الخديوى.

وشكل «توفيق» لجنة قانونية يرأسها ناظر الحقانيه.

وأهم عندى من توفيق الخديوى، الفلاح المصرى، عرابى.

عندما قاد ثورته ضد الاستبداد، كان أول طلبات عرابى:

١- اسقاط الوزارة المستبدة

٢- تشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبى

٣- كان المطلب الثالث خاصا بالجيش، وهو الرجل العسكرى: إبلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية.

واقترن عهد توفيق بالاحتلال، ولكن القضاء المصرى فى عهد الاحتلال، ارتفعت أحكامه على التحيز فعلى سبيل المثال حكم على أحد ذوى اليسار يملك خمسة آلاف فدان بالحبس سنة لتزوير ارتكبه.. وعلى آخر من اكبر العائلات المصرية شهرة وأعظمها تأثيرا بعقوبة مؤبدة لجناية سطو ارتكبها.

وفى عهد الاحتلال، رفض الشيخ محمد الامبابى مقابلة- كرومر واعتكف فى قريته فسعى اليه كرومر فأبى ان يستقبله او يقف لتحيته فقال له كرومر:

- لقد سعيت اليك فى قريتك.. أتيت إلى دارك ومع هذا تأبى السلام على فرد عليه الشيخ محمد الامبابى فى عزة رجل الدين الذى يمثل السلطة الروحية لهذه الأمة:

- أنت مستعمر بلادى ودينى ينهانى عن تعظيمك.. وخرج من عنده كرومر بعد أن وقر فى نفسه احترامه، ليكتب تقريرا للندن.

لقد تحيف اتباع محمد بك الالفى، أهل بلبيس فى عهد الشيخ عبدالله ابن حجازى الشرقاوى شيخ الجامع الازهر، فثار الامام الأكبر (وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك وابراهيم بك فلم يبديا شيئا. وأمر المشايخ الناس بغلق الاسواق والحوانيت ثم ركبوا.. وتبعهم كثير من العامة وازدحموا امام الباب والبركة- حيث يسكن إبراهيم بك- فأرسل اليهم أيوب بك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا.

- نريد العدل وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها.

فقال لا تمكن الاجابة إلى هذا كله فانا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش فقالوا له:

- ليس هذا بعذر عند الله وما الباعث على الإكثار من النفقات والمماليك؟ والاميريكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ.

واستجاب مراد بك وأرسل إلى العلماء وشيخهم الشرقاوى (والتمس منهم السعى فى الصلح) فأنعقد الصلح على رفع المظالم. وانتصر العدل.

فى رحلة العدل اتعمد الوقوف امام مواقف العلماء من العدل والحق بما يمثلون من سلطة الأمة.. السلطة الروحية. وقد كانت هذه الأمة تسمى رجل الدين حين ينتصر للحق «سلطان العارفين» فى عملية رد على سلطان الحكم وأقرب هؤلاء إلى حياتنا الحاضرة «سلطان العارفين» الشيخ «ابو العلا» حين طوى النسيان اسم الحاكم فى عصره.

إن العدل فى مصر يتمثل فى مظاهر شتى.

عندما وضع الشيخ المراغى قانونا لإصلاح الازهر سنة ١٩٢٨ وقف ينافح عنه وتصدى لمجلس الوزراء يناقشه فيه، حتى اقتنع المجلس وأقر القانون.. ولم يبق إلا صدور المرسوم به.

فلما لم يصدر القانون قدم الشيخ المراغى، استقالته.. لأنه كما يقول أحمد لطفى السيد (كان من الذين يرون المناصب ضريبة يدفعها الكفء لامزيه يختص بها المقربون).

كان الشيخ المراغى يعمل فى السودان قاضى القضاة وثورة سنة ١٩١٩ قائمة فى مصر فأحل دماء الانجليز ودعا إلى الثأر منهم، وهنا قال عنه سير لى ستاك حاكم السودان حينئذ (ان الشيخ المراغى لا يمكن التغلب عليه. انه أحد الدهاة)(١).

روح العدل فى مصر تتمثل فى وقفة العقاد فى البرلمان مهددا بسحق أكبر رأس تهدد الدستور مرآة العدل.

وحين وقف بروح العدل مدافعا عن خصمه السياسى فى ذلك الوقت الدكتور طه حسين فى قضية كتاب (فى الشعر الجاهلى).

ولما كان القضاء حصن هذه الأمة، فقد نادى المفكرون باستقلال القضاء فنادى لطفى السيد بحرية القضاء قائلا:

(حقوقنا رهن باستقلال القضاء فإن لم يكن القضاء حرا مستقلا فمصالحنا همل، وحريتنا هراء)(٢).

وقد شهد عام ١٩٤٦ مولد مجلس الدولة يحمى المواطنين من عسف القرارات الإدارية اذا وقع فكان أعظم اصلاح دستورى بعد دستور ١٩٢٣(٣).

كم عانى قضاة مصر كشعبها من اقتئات واعتداءات على مسيرة ثلاثين سنة طويلة مريرة ولكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

---

(١) كتاب (الشيخ المراغى بأقلام الكتاب) ص ١٨٦.

(٢) اقرأ (المنتخبات) جـ ٢ ص ٨.

(٣) (المحامون وسيادة القانون) للاستاذ عبدالحليم الجندى

لا أتكلم عن شموخ القضاء المصرى فى الحكم بالعدل فى قضايانا المعاصرة فالقضاة بها أدق علما.

ولكن من حقى أن أتكلم عن موقفين كان رجال العدل المصريين: قضاة ومحامين، حصنا..

أول الموقفين، هضبة الاهرام التى أنصفنى فيها القضاء الابتدائى والاستئنافى ثم مجلس الدولة.

والموقف الثانى يوم عرض الحاكم مالا يملك: ماء النيل على اسرائيل.

وفتحت لى نقابة المحامين بابها وللأحرار الذين جبهوا العرض وجابهوا المشروع المعروض بالرفض وللإدانة.

وبدأت الندوة فى الثامنة مساء وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل. فلم يلبث الحاكم، ولما يمض على الندوة، ثلاثة أيام، حتى أعلن تراجعه وانتصرت مصر.

وابتليت مصر فى السبعينيات بقوانين تنشىء محاكم استثنائية، ومنيت بأقحام من ليسوا قضاة أنفسهم عليها. وهى محاكم (حظرت انشاءها فى غير زمن الحرب، أغلب دساتير العالم ومنها الدستور الافغانى. وفى مقدمة تلك القوانين: قانون حماية القيم من العيب الصادر بالقانون رقم ٩٥ لسنة ١٩٨٠ اذ فضلا عما خلفه هذا القانون من ازدواجية مقيتة تتنافر مع الاحترام الواجب لحجية الأحكام، فقد ابتدع مسئولية سياسية لأشخاص لا يتمتعون بأية سلطة سياسية.

ثم أليست فلسفة قانون العيب، اهدارا لكافة مواد الدستور التى نصت على حرية الرأى وحرية التعبير وحرية الفكر وحرية البحث العلمى. أليس القضاة باستقلالهم وحصانتهم هم حماة الحقوق والحريات بنص المادة (٦٥) من الدستور؟(١)

(١) المستشار محمد وجدى عبدالصمد- مجلة القضاة يناير- يونيه ١٩٨٤.

المراجع والمصادر

(١) فجر الضمير.. جيمس هنرى برستد
(٢) شخصية مصر.. دكتورة نعمات أحمد فؤاد
(٣) الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة سير و. م. فلندوز بترى ترجمة محسن محمد جوهر- عبدالمنعم عبدالحليم
(٤)الحياة اليومية فى عهد الرعامسة بيير مونتيه ترجمة عزيز مرقس منصور.
(٥) النيل فى الادب المصرى- دكتورة نعمات أحمد فؤاد.
(٦) الليث بن سعد- دكتور عبدالحليم محمود- الامام الاكبر شيخ الجامع الأزهر.
(٧) التاريخ العام للقانون فى مصر القديمة والحديثة- دكتور شفيق شحاتة.
(٨) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى استاذ عبدالمجيد عابدين.
(٩) المجددون فى الإسلام الاستاذ أمين الخولى.
(١٠) صبح الاعشى.
(١١) فى تاريخ المذاهب الفقهية لشيخ أبو زهرة.
(١٢) النظام القضائى المصرى الحديث كتورة لطيفة محمد سالم.
(١٣) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب.
(١٤) المنتخبات استاذ احمد لطفى السيد.
(١٥) المحامون وسيادة القانون استاذ عبدالحليم الجندى.
(١٦) مبدأ المشروعية فى النظام الاسلامى والانظمة القانونية المعاصرة عبدالجليل محمد على .
(١٧) الولاة وكتاب القضاة لابى عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى
(١٨) أسبوع الفقه الاسلامى الثالث المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب.
(١٩) نظام القضاء فى مصر من الفتح الاسلامى إلى الفتح العثمانى.
(٢٠) العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية ابراهيم جلال بك.
(٢١) كتاب ادب القاضى لابى بكر احمد الشيبانى.
(٢٢) حسن المحاضرة السيوطى.
(٢٣) من أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان.
(٢٤) نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر دكتور عبدالمنعم ماجد.
(٢٥) المعز لدين الله د. حسن ابراهيم- طه أحمد شرف.
(٢٦) المرافعات فى أشهر القضايا استاذ محمود عاصم.
(٢٧) العيد الخمسينى للمحاكم الاهلية- المطبعة الاميرية ١٩٣٣.
(٢٨) مجلة القضاة (يناير- يونيه ١٩٨٤).